# المقدمـــة

أسرتك هي أهم شيء في حياتك، وهي تتعرض مثل كل الأسر إلى العواصف والأنواء التي تريد أن تدفعها بعيدًا عن المسار السليم الذي سيوصلها إلى الغاية إن شاء الله، فهل هذه الغاية واضحة في ذهنك أنت وزوجتك وأولادك؟ لأن وضوح الغاية ضروري حتى تصل إليها، فلا يمكن أن نحافظ على مسارنا للوصول إلى غاية ليست واضحة لنا، ولكي تكون هذه الغاية أوضح ما يكون يقترح أحد الكتاب الأمريكيين كتابة بيان **بمهمة الأسرة**، هذا البيان لن يكون واضحًا فيه فقط الغاية من تكوين الأسرة، ولكن كذلك أسلوب الوصول إلى هذه الغاية، وكيف تتمنيان أن تكون الحياة داخل أسرتكما، والعلاقات التي تسود فيها، وكيف ستواجهان الصعاب معًا.

وأنت بحاجة إلى أن **تجدد أسرتك**، وخاصة في هذه الأيام الصعبة، وأن تجددها باستمرار، وأن تسن المنشار (الذي هو وسيلتك وأداؤك في العمل)؛ حتى يظل حادًّا ويقطع أسرع، ولكي تقوم بهذا التجديد لا بد أن تكون **مبادرًا وإيجابيًّا**، وأن تشرع في هذا التجديد والهدف واضح في ذهنك. إن المبادرة هي العادة الأولى التي سنتناولها في هذا الكتاب، و**وضوح الهدف** من تجديد الأسرة ومن الأسرة ذاتها هو العادة الثانية، وقد يكون الهدف هو الارتقاء بأسرتك من أسرة تسعى لمجرد البقاء إلى مستوى الأسرة ذات مغزى في الحياة، وهي الأسرة التي ليست ناجحة فقط، ولكنها التي يتعدى نفعها محيطها، بحيث تصبح نافعة للآخرين، وتصبح هي عامل التغيير الأكبر في الأسرة (والدك ووالدتك وأعمامك وأخوالك...) وفي المجتمع المحيط بها.

وإذا **رتبت أولوياتك** بطريقة صحيحة، فستكون أسرتك على رأس أولوياتك، أهم من عملك وأهم من أي شيء آخر، وهذه هي العادة الثالثة، وإذا اقتنعت بأهمية الأسرة وبأنك مسئول عنها: «**كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته**»، فلا بد أن **تمارس مسئوليتك** وتلك هي العادة الرابعة، ومسئوليتك هي أساسًا المسئولية عن تربية أولادك.

أما العادتان الخامسة والسادسة فيجب أن تمارسهما معًا، وذلك بأن تسعى أن **تفهم** أفراد أسرتك، ثم تسعى لأن **يفهموك**، فإذا حدث هذا بطريقة فعالة فستصل للتكاتف و**التآزر** الذي يؤدي إلى أن يصبح حاصل جمع واحد زائد واحد يساوي ثلاثة أو أكثر، وهذا يوصلك إلى ما بدأنا به هذه المقدمة، وهو ضرورة الاستمرار في **تجديد أسرتك** في المجالات الأربعة: البدني والعقلي والاجتماعي/ العاطفي والروحي، وهذه هي العادة السابعة، وقد اقترحنا في هذا الكتاب عشرة أساليب يمكنك استخدامها ليستمر هذا التجديد ويستمر سَن المنشار، فإذا استمررت على ذلك، وفهمت أنه لا بد أن يتعدى نجاحك ونفعك محيط أسرتك الصغيرة، فستكون في «وضع الاستعمال» كأسرة تساعد الآخرين وتخدمهم، وهذا هو المغزى الذي لا بد أن تطمح في الوصول إليه.

يقول الشيخ الغزالي: «كثيرًا ما يحب الإنسان أن يبدأ صفحة جديدة في حياته، ولكنه يقرن هذه البداية المرغوبة بموعد مع الأقدار المجهولة، كتحسّن في حالته أو في مكانته، وقد يقرنها بموسم معين أو مناسبة خاصة كعيد ميلاده الأربعين، أو غرة عام جديد مثلًا، وهو في هذا التسويف يشعر بأن رافدًا من روافد القوة قد يجيء مع هذا الموعد فينشّطه بعد خمول، ويمنّيه بعد يأس، و**هذا وهم؛ فإن تجدد الحياة ينبع قبل كل شيء من داخل النفس**»، وقد قال الكاتب ستيفن ليكوك: «ما أعجب الحياة!، يقول الطفل: عندما أشب فأصبح غلامًا، ويقول الغلام: عندما أترعرع فأصبح شابًّا، ويقول الشاب: عندما أتزوج، فإذا تزوج قال: عندما أصبح متفرغًا من عملي (على المعاش)، فإذا جاءت الشيخوخة تطلع إلى المرحلة التي قطعها من عمره، فإذا هي تلوح له وكأن ريحًا باردة قد اكتسحتها اكتساحًا، إننا نتعلم بعد فوات الأوان أن **قيمة الحياة في أن نحياها**».

نحيا كل يوم منها وكل ساعة، ولا نؤجل تجديدها وتحسينها حينًا بعد حين، والرجل المقبل على الدنيا بعزيمة وإرادة لا تُخضعه الظروف المحيطة به مهما ساءت، ولا تصرفه وفق

هواها، بل هو الذي يستفيد منها، ويحتفظ بخصائصه أمامها كبذور الأزهار التي تنمو تحت أكوام السباخ، ثم هي تشق الطريق إلى أعلى مستقبلة ضوء الشمس برائحتها المنعشة، وقد حولت الحمأ المسنون والماء الكدر إلى لون بهيج وعطر فواح، كذلك الإنسان إذا ملك نفسه وملك وقتة واحتفظ بحرية الحركة لقاء ما يواجهه من شئون صعبة، إنه يقدر على فعل الكثير دون انتظار إمدادات خارجية تساعده على ما يريد، إنه بقواه الكامنة وملكاته المدفونة والفرص المحدودة أو الصغيرة المتاحة له يستطيع أن يبني حياته من جديد، لا مكان لتريّث. إن الزمان قد يمد بعون يشد به أعصاب السائرين في طريق الحق، أما أن يَهَب المقعد بقدرة على الخطو أو الجري فذاك مستحيل.

**لا تعلّق حياتك على أمنية يلدها الغيب،** فإن هذا الإرجاء لن يعود عليك بخير، فالحاضر القريب الماثل بين يديك، وفساد هذه النفس التي بين جنبيك، والظروف الباسمة أو الكالحة التي تلتف حواليك، هي وحدها الدعائم التي يتمخض عنها المستقبل، فلا مكان لإبطاء أو انتظار، قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل**» (رواه مسلم)، ثم إن **كل تأخير** لإنفاذ أمر تجدد به حياتك وتصلح به **أعمالك لا يعني إلا إطالة الفترة الكئيبة التي تبغي الخلاص منها،** ولا يعني إلا بقاءك مهزومًا إما بوازع الهوى أو التفريط؛ بل قد يكون ذلك طريقًا إلى انحدار أكثر، وهنا الطامة.

وتجديد حياة الإنسان المتزوج يعني تجديد حياته الأسرية أيضًا، وليس حياته الشخصية فقط، وينطبق عليه ما قاله الشيخ من أن الإنسان دائمًا ينزع إلى التسويف وانتظار شيء ما يحسن الأمور بطريقة لا يتعب معها، أي يحسنها بطريقة سحرية، وهذا كما قال الشيخ لا يعني إلا إطالة الفترة الكئيبة أو غير السعيدة التي يبتغي إنهاءها، ولا بد أن يكون الإنسان مبادرًا كما تقول العادة الأولى من عادات الأسر الأكثر فاعلية من كتاب ستيفن كوفي، والمبادرة تعني أن تكون إيجابيًّا وتقود التغيير المنشود في أسرتك، وتعني المسارعة إلى بدء التجديد في نفسك أولًا ثم في أفراد أسرتك، **فالتغيير الناجح كما يقول كوفي: هو الذي يبدأ من الداخل إلى الخارج.**

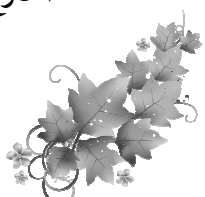

فلينظر لنفسه نظرة ناقدة في جوانبها ليتعرف عيوبها وآفاتها، وتأثير ذلك على أسرته، وليتعرف على عيوب وآفات الأسرة كمجموعة أفراد مختلفي المشارب والهمم والغايات والخصائص، ثم يرسم السياسات قصيرة المدى وطويلة المدى ليتخلص من هذه الصفات التي تزري به، والهفوات التي تعكر صفو أسرته، إن كل إنسان منظم ينظر في أدراج مكتبه كل بضعة أيام ليذهب الفوضى التي تؤثر في وضعه الصحيح، ويدفع إلى سلة المهملات ما لا معنى للاحتفاظ به، وكذلك تفعل ربة المنزل المدرَّبة، فالبيت بعد يوم كامل من الأعمال ولعب الأطفال تصبح غرفه وصالاته متسخة مرتبكة، فإذا بالأيدي الدائبة تجول هنا وهناك لتنظف الأثاث المغبر وتطرد القمامة الزائدة، وتعيد إلى كل شيء رواءه ونظامه، **ألا تستحق حياة الإنسان مثل هذا الجهد؟** ألا تستحق نفسك أن تتعهد شئونها بين الحين والحين لترى ما عراها من اضطراب فتزيله، وما لحقها من آثام فتنفيه عنها مثلما تزيل القمامة عن الساحات والبيوت، **ألا تستحق الأسرة بعد كل مرحلة تقطعها من الحياة أن تعيد النظر فيما أصابها من غنم أو غرم**، وأن ترجع إليها توازنها واعتدالها وتعيدها إلى المسار الصحيح كلما رجّتها الأزمات وعصفت بها الأنواء.

إن الإنسان أحوج الخلائق إلى التنقيب في أرجاء نفسه وتعهد حياته الخاصة والعامة بما يعصمها من العلل والتفكك، ذلك أن الكيان العاطفي والعقلي للإنسان قلما يبقى متماسك اللبنات مع تعرّضه للاحتكاك بصنوف الشهوات وضروب المغريات، فإذا ترك عوامل الهدم تنال منه فهي آتية عليه لا محالة، وعندئذٍ تنفرط المشاعر العاطفية والعقلية، كما تنفرط حبات العقد إذا انقطع سلكه، وهذا شأن: ﴿**مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ وكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف: 28]، كما يقول الله تعالى، وكلمة «فُرُطا» هذه ينبغي أن نتأمل فيها، فالعامة عندنا يسمّون حبات العنب المتساقطة من عنقودها فرطات، **والنفس الإنسانية إذا انقطعت أواصرها ولم يربطها نظام ينسق شئونها** ويركز قواها **أصبحت مشاعرها وأفكارها كهذه الحبات المنفرطة السائبة لا خير فيها ولا فائدة منها**. ومن ثم نرى ضرورة العمل الدائم لتنظيم النفس وإحكام الرقابة عليها.

والأسرة مكونة من أفراد يجري عليهم ما ذكره الشيخ، فقد ينفرط عقد الأسرة فجأة، وهذا ما يحدث في الغرب؛ تصبح الأسرة، فإذا الأب غائب أو الأم قد رحلت، وتبقى الأسرة

بعائل واحد إما الأب فقط أو الأم فقط وتستمر كذلك، وقد زادت عدد الأسر ذات العائل الواحد في الأربعين سنة الماضية في أمريكا ثلاثة أضعاف.

ونفس الشيء يحدث مع الأولاد ابتداء من سن السادسة عشرة، عند أي خلاف أو عند الالتحاق بالجامعة، يترك الابن أو الابنة منزل الأسرة ويعيش بمفرده أو بمفردها أو في المدينة الجامعية، ولم يعد الترابط الأسري حتى في الدول الإسلامية كما كان، **وهذا التفكك الأسري يحتاج من كل رب أسرة أن يتعهدها بما يصونها من التباعد والتفكك**، ويسعى إلى تقوية الروابط العاطفية بين أفرادها لتبقى متماسكة اللبنات متكاتفة المفردات، يحب بعضهم بعضًا، ويحرص بعضهم على شعور بعض، ويدعم كل فرد الآخرين ويتلقى الدعم منهم، ويعيدها دائمًا إلى المسار كلما انحرفت عنه، كما يعيد الطيار المحترف الطائرة إلى المسار إذا دفعتها الأنواء بعيدًا عنه، **مستعينًا بالبوصلة، التي هي الضمير والقيم، التي تحدد له دائمًا الصواب من الخطأ والحق من الباطل.**

**والله يهيب بالبشر قبيل كل صباح أن يجددوا حياتهم مع كل نهار مقبل**، فبعد أن يستريح الإنسان بعد يومه من المفروض أن يسأل كل منا نفسه: ماذا فعل في يومه السابق؟ ماذا فعل في عباداته؟ ماذا فعل مع أسرته، ماذا فعل في صلة رحمه؟ ماذا فعل من الخير؟ وماذا اقترف من الشر؟ وكلما أضلته حيرته بات محتاجًا إلى أشعة من الأمل والتوفيق، إن صوت الحق يهتف - في هذه اللحظة المباركة في آخر الليل- في كل مكان ليهتدي الحائرون ويعزم المسوفون، قال رسول الله ﷺ: «**إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه، ينزل الله -تبارك وتعالى- إلى السماء الدنيا، فيقول: هل من سائل فيعطى؟ هل من داعٍ فيستجاب له؟ هل من مستغفر فيغفر له؟ حتى ينفجر الفجر**». (رواه مسلم)، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن، إنها لحظة إدبار الليل وإقبال النهار، وعلى أطلال الماضي القريب أو البعيد يمكنك أن تنهض لتبني مستقبلك ومستقبل أسرتك، وليت زوجتك وأولادك يحضرون هذه اللحظة معك، ليجدد كل منهم حياته مثلك.

ولا تحبطك كثرة الخطايا، فلو كانت كزبد البحر لن يبالي الله بالعفو عنها إن اتجهت إليه قاصدًا، وانطلقت إليه راكضًا، إن الكنود القديم لا يجوز أن يكون عائقًا أمام أوبة صادقة: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعًا إِنَّهُ**

﴿هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر:53، 54]، وفي حديث قدسي عن الله -عز وجل- قال: «**يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة**». (رواه الترمذي)، هذا الحديث وأمثاله جرعة تحيي الأمل في الإرادة المخدرة، وتستنهض العزيمة الخافتة، وتستحث النفس الخجلى لتجدَّ في السعي إلى الله، و**لتجدد حياتها بعد ما صدر عنها من سلوك غير مستقيم**، ولتجدد أسرتها بعد مشكلات ومنازعات أصابت كيانها بالتصدع الذي يحتاج إلى ترميم.

وطبيعي أن تكون التوبة نقلة كاملة من حياة إلى حياة، وفاصلًا قائمًا بين عهدين متميزين كما يفصل الصبح بين الظلام والضياء، فليست هذه العودة زورة خاطفة يرتد المرء بعدها إلى ما ألف من فوضى وإسفاف، وليست محاولة فاشلة ينقصها صدق العزم وقوة التحمل وطول الجلد، كلا .. كلا، إن هذه العودة الظافرة التي يفرح بها الله هي انتصار الإنسان على أسباب الضعف والخمول لديه، وسحق جراثيم الضلال والمعصية عنده، وانطلاق من قيود الهوى والجحود، ثم استقرار في مرحلة جديدة من الإيمان والإحسان والنضج والاهتداء، هذه العودة التي يقول الله في صاحبها: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وآمَنَ وعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**﴾ [طه:82].

**إنها حياة تجددت بعد بلى**، ونقلة حاسمة غيرت معالم النفس، **كما تتغير الأرض الموات بعد مقادير هائلة من المياه والمخصبات**. إن تجديد الحياة لا يعني إدخال بعض الأعمال الصالحة أو النيات الحسنة وسط جملة ضخمة من العادات الذميمة والأخلاق السيئة، فهذا الخلط لا ينشئ به المرء مستقبلًا جميلًا ولا مسلكًا مجيدًا؛ بل إنه لا يدل على كمال أو قبول. فإن القلوب المتحجرة قد ترشح بالخير، والأصابع البخيلة قد تتحرك بالعطاء؛ فالأشرار قد تمر بضمائرهم فترات صحو قليلة، ثم تعود بعد ذلك إلى سُباتها، ولا يسمى هذا اهتداء، **إن الاهتداء هو الطور الأخير للتوبة النصوح**، إن البعد عن الله لن يثمر إلا علقمًا، ومواهب الذكاء والقوة والجمال والمعرفة تتحول كلها إلى نقم ومصائب عندما تُعرّى من توفيق الله وتحرم بركته.

**والعودة إلى الله تتطلب أن يجدد الإنسان نفسه وأن يعيد تنظيم حياته وأسرته، وأن يستأنف مع ربه علاقةً أفضل وعملًا أكمل**، وعهدًا يجري فيه على فمه هذا الدعاء: «**اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**» (رواه الشيخان).

إن في تعاليم الإسلام المنوعة -في كل شأن من شئون الحياة- نداء للطبائع السليمة والأفكار الصحيحة، وفي توجيهاته المبعوثة في أصوله متنفس واسع لما تنشده النفوس من كمال وتستريح إليه من قرار، وهناك تشابه بين تراث الإسلام وبين ما انتهى إليه المفكرون النابهون من كل ملة في أغلب النواحي النفسية والاجتماعية والسياسية، وهناك من وجوه الاتفاق ما يدل على صدق التطابق بين وحي التجربة ووحي السماء، فكما تتحد الإجابة السديدة على فم شخصين ألقي إليهما سؤال واحد اتحد منطق الطبيعة الإنسانية الصالحة مع منطق الآيات السماوية، والسبب هو الفكرة السليمة، فأصحاب الصحة النفسية والعقلية، وأصحاب الأمزجة المعتدلة والطباع المكتملة يمكن أن يسمع منهم ويؤخذ عنهم، وعندما تلمح مواريث الأجيال والحضارات المختلفة في الشرق والغرب ترى أصحاب هذه الفطر السليمة والأفكار الراقية يرسلون الحكمة الغالية والوصايا الثمينة، ويعرضون لتقويم الأوضاع إذا مالت، ولإقالة الأخطاء إذا شاعت، وكم كان جديرًا بالعالم أن يؤرخ لهم ويذكرهم ويلفت الأنظار لهم لتنتفع البشرية بما عندهم من أقوال حكيمة وآراء سديدة، بدلًا من أن يؤرخ للساسة والقادة سفاكي الدماء ومذلي الشعوب، كما في كتابات ديل كارنيجي وستيفن كوفي وغيرهما.

وعلاج مشكلات الناس وأدوائهم لا يقدر عليه إلا رجل حل مشكلات نفسه وداوى عللها. ومنهج الإسلام يؤيد كل رجل من هؤلاء هجر الخرافات والأوهام، وقرر أن يسير إلى خير البشرية على ضوء من الفكر الواضح والعمل الصالح، وللفطرة في بلاد الإسلام كتاب يتلى ودروس تلقى وشعوب هاجعة!! ولها في البلاد الأخرى رجال ينقبون عن هدايتها كما ينقب الجيولوجيون عن الذهب في أعماق الأرض، فإن ظفروا بشيء منه أعلوا قدره واستفادوا منه، ويقول الإمام الغزالي: «صدق من قال: الناس رجلان؛ رجل نام في النور،

ورجل استيقظ في الظلام». والرجال الذين يحاولون تغيير الظلام المحيط بهم كثيرون، أمثال ديل كارنيجي وستيفن كوفي وتوينبي وبرنارد شو وبرتراند راسل ونيتشه، وكثيرون غيرهم.

ونتاج الفطرة الإنسانية السليمة في البلاد المحرومة من أشعة القرآن الكريم نتاج واسع الدوائر متفاوت القيمة، وليس يصعب على من له أثارة من علم بالإسلام الحنيف أن يرى التشابه بين الدلالة الصامتة هناك والدلالة الناطقة هنا، أو بين العنوان المفصول عن موضوعه هنا والموضوع الذي فقد عنوانه هناك، إن الانحطاط الفكري في البلاد المحسوبة على الإسلام يثير اللوعة، كما يقول الشيخ الغزالي: **واليقظة العقلية في الأقطار الأخرى تثير الدهشة؛ لأنها تواكب انحطاطًا أخلاقيًّا عجيبًا**.

وقد تكون هذه اليقظة صدى الفطرة التي جاء الإسلام يعلي شأنها، أما تخلف المسلمين فسببه الأول تنكُّرهم لهذه الفطرة السليمة وتخاذلهم عن السير معها.

وقد حاولت في هذا الكتاب عقد مقارنة بين بعض الوصايا الإسلامية وبين الأفكار العقلية في كتابين من أكثر الكتب مبيعًا في الغرب، وسيرى القارئ من روعة التقارب وصدق التطابق ما يبعث على العجب، ولكن سيرى كذلك أن غيبة المرجعية تجعل حتى أذكى العقول الغربية وأصفى القلوب الشرقية تقع في أخطاء متعددة في توجهاتها لإصلاح الأسرة والعودة بها إلى المسار الصحيح.

لقد استعنت في إعداد هذا الكتاب بكتابين من أوسع الكتب انتشارًا في مجال تجديد الأسرة، هما: كتاب «العادات السبع للأسر الأكثر فاعلية» لستيفن كوفي، وكتاب «الرجال من المريخ والنساء من الزهرة» لجون جراي. واستفدت كذلك من كتاب «دع القلق واستمتع بالحياة» لديل كارنيجي، وكذلك كتاب إمامنا الشيخ الغزالي «جدد حياتك»، وكان منهجي في الاستعانة بهذه الكتب أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها، ورغم أن ديننا فيه كل ما في هذه الكتب وأكثر إلا أن طريقة عرض ما في الإسلام عن الأسرة سواء العلاقة بين الزوج وزوجته، أو العلاقة بينهما وبين الأولاد، لم تجد من يقدمها بشكل عصري بالطريقة التي اتبعتها هذه الكتب، فأنا أعرض منها ما يفيد من الطريقة الجذابة التي استعملوها، ثم أرد النصائح التي جاءوا بها إلى أصولها الإسلامية، وأحيانًا أعارض ما ذهبوا إليه إذا اختلف مع مرجعيتنا، التي هي من الله -خالق البشر، والعارف بما يصلحهم.

فمن الأشياء الجميلة التي أحسن كوفي في عرضها؛ فكرة أن **الحب سلوك**، وأن الحفاظ على أسرة ناجحة يتطلب الكثير من الكد والعمل، وكذلك فكرة **فتح حساب في بنك العواطف** لدى زوجتك وأبنائك، بحيث تحرص دائمًا على الإبداع فيه بكلمة رقيقة أو هدية بسيطة، بحيث إنه حتى لو سحبت منه في وقت الأزمات - إذا انفعلت على أي من أفراد أسرتك - يبقى دائمًا لك في هذا الحساب رصيد من الثقة والحب.

كما أن فكرة كتاب «الرجال من المريخ والنساء من الزهرة» هي فكرة تجعل كلا الزوجين يفهم الآخر فهمًا أفضل، وهذا مطلوب بشدة هذه الأيام، فلا بد أن يدرك الزوج أن زوجته مخلوق مختلف عنه اختلافًا كبيرًا، فهي عاطفية تحب الكلام وتحب أن تشعر بالأمان والمودة، كما يجب أن تدرك الزوجة أن زوجها ما زال يحبها رغم أنه لا يقول لها كلمات حب ولا يطري لباسها أو ذوقها أو طعامها، ولكنه يعبر عن حبه بوسائل عملية، وليس بالكلام.

ونجد أن كلا **الكتابين فيه من الأفكار ما يعينك على أن تجدد حياتك وتجدد أسرتك** أو تحسّن علاقتك مع أفرادها، ولا تنتظر أي تغيير في الظروف. ابدأ من اليوم، كن إيجابيًّا، وكن أنت عامل التغيير الرئيس في أسرتك، وابدأ بالأهم فالمهم، فأسرتك هي أهم شيء في حياتك، فخصص لها يومًا في الأسبوع وحافظ عليه، وكلما اجتهدت مع زوجتك وأبنائك فإن المكسب سيكون مشتركًا، ومارس مسئولياتك، واجتهد في فهم زوجتك وفي فهم أولادك وخاصة في سن المراهقة، وذلك قبل أن تطلب منهم أن يفهموك، ثم تكاتف معهم وتآزر وادعم كلًّا منهم ليحقق هدفه في الحياة، واستخدم قوة التجديد القائم على الاعتماد المتبادل لتجديد الأسرة اجتماعيًّا وعاطفيًّا وعقليًّا وروحيًّا، ولا تغفل التجديد الجسدي أيضًا. كما أن هذين الكتابين يجيبان عن بعض تساؤلاتك، مثل: كيف تخلق روح التجديد في الأسرة؟ وكيف تنتقل من التشتت إلى الاستقرار إلى النجاح؟ وما هو المغزى من جدد أسرتك؟

**إن أمتع لحظاتنا وأشد آلامنا تنبع من حياتنا الأسرية**، كلنا ننشد الصواب ونرغب في البهجة التي نعرف أنها ممكنة، ولكن عندما نستشعر الفجوة بين ما نصبو إليه وبين الواقع الذي تعيشه أسرنا يوميًّا - نتيجة ضغوط الحياة المتزايدة - نشعر أننا خارج المسار، ومن السهل أن نصاب بالإحباط ونفقد الأمل، ولكن هناك أمل: أمل عظيم، و**مفتاح ذلك الأمل**

**هو أن تتذكر دائمًا المداومة على العمل من الداخل إلى الخارج، أي: تغيرك أنت أولًا حتى يتغير من حولك**، وأنه لا بد أن تعاود مع زوجتك الرجوع كل فترة إلى المسار الذي انحرفتما عنه والذي يوصلكما إلى هدفكما النهائي الذي اتفقتما عليه أصلًا (أو ينبغي أن تكونا قد اتفقتما عليه)، ولكن **لا بد أن تتحلى بالصبر الذي هو تطبيق عملي للإيمان**، والصبر هو المثابرة الوجدانية، إنه الاستعداد لتحمل المعاناة الداخلية؛ كي يسعد الآخرون .. إنه يكتشف الحب ويخلق الفهم، وحتى عندما نعاني في حب أفراد أسرتنا نتعلم أشياءَ جديدة عن أنفسنا، وعن نقاط ضعفنا وقوتنا ودوافعنا، وعندما كان الإنجليز في موقف صعب جدًّا بعد سقوط أوربا كلها تقريبًا في يد الألمان وبدء ضربهم بالصواريخ الألمانية، خرج وينستون تشرشل رئيس وزرائهم الجديد بعد انتخابه ليقول لهم جملة واحدة: «أبدًا، أبدًا، أبدًا.. لن نستسلم». واكتشف الإنجليز في أنفسهم قدرات كامنة ما كانوا يعرفونها، فلا تستسلم أبدًا عندما تتحطم أسرتك أو عند حدوث تصدعات كثيرة بها بحيث تصبح على وشك التحطم، أبدًا .. أبدًا لا تستسلم، كما قال الله –تعالى– على لسان إبراهيم عندما قالت له الملائكة: ﴿**فَلَا تَكُن مِّنَ القانطين**﴾ فقال: ﴿**قَالَ ومَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إلا الضَّالُّونَ**﴾ [الحجر: 51].

فالضالون فقط هم الذين يصيبهم اليأس والقنوط، أما الذين لديهم أقل قدر من الإيمان فلا يفقدون الأمل في الله أبدًا؛ لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وكما يذكرنا تشبيه مسيرة الأسرة برحلة الطيران فإن الوجهة ليست مبهمة أو بعيدة المنال، والرحلة يمكن أن تكون ممتعة وغنية ومبهجة إذا اخترت أن تجعلها كذلك، كن مبادرًا، وكما كتب شكسبير قديمًا:

**يصارع الرجال في حياتهم موجًا عاتيًا ..**

**إذا ما جابهوه حازوا المفازة (أي تخطوا المسافة الفاصلة) ..**

**وإذا تركوه لم يجنوا إلا الشقاء والتعاسة ..**

**نحن جالسون على شاطئ ذلك البحر الخضم ..**

**فإذا ما جاءت الموجة الهائلة ركبناها ..**

**أو تركناها وتركنا معها كل آمالنا ..**

**لا بد أن تبدأ موجة تجديد أسرتك الآن**، فرغم انتشار موجات فساد كثيرة في المجتمع فإن كلًا منا يعرف في قرارة نفسه مدى أهمية الأسرة، وعندما سأل كوفي جمهوره في شتى بقاع العالم عن أهم ثلاثة أشياء في حياتهم، وضع 95٪ منهم الأسرة أو العلاقات الأسرية في القائمة، ووضع 75٪ منهم الأسرة على رأس القائمة.

ولكن، لا بد أن ندرك -ونحن نقرأ كتاب العادات السبع مثلًا- مدى اختلاف الأسرة في العالم الإسلامي عنها في العالم الغربي؛ ولذا نجد أن الكاتب (ستيفن كوفي) يركز دائمًا على أن الحب التزام، ويكرر على التزام الأب والأم تجاه أبنائهما، ويتحدث دائمًا عن الحب غير المشروط الذي هو حب الأبناء كما هم، بصرف النظر عن سلوكهم، ولكن في العالم الإسلامي حتى الآن -لحسن الحظ- ما زال التزام الأب والأم تجاه أبنائهما ليس التزامًا كاملًا فحسب وإنما هو التزام دائم كذلك، فالأبوان يرعيان أبناءهما أثناء فترة التعليم حتى الحصول على الشهادة الجامعية، ثم يساعدونهم ماديًّا ومعنويًّا على الزواج، ثم يدعمونهم ماليًّا بعد الزواج، ويرعون أولادهما؛ لأن الزوجين الشابين يعملان، وهكذا يلتزمون تجاههم حتى الممات.

ولذلك نجد أن الإسلام يركز على بر الوالدين، أي يركز على التزام الأبناء تجاه آبائهم، لأن التزام الآباء والأمهات شيء فطري، ولكن عندما تنحرف الفطرة - كما حدث في الغرب- تصل الأمور إلى أن أربعين في المائة من الأسر أصبحت ذات عائل واحد - الأب فقط أو الأم فقط - ويصبح الأولاد، فلا يجدون آباءهم، ويصبح آخرون فلا يجدون أمهاتهم، أو يتفق الأب والأم على الطلاق (خمسون بالمائة من الزيجات تنتهي بالطلاق)، ولذلك نجد أن كتَّابًا أوتوا الحكمة -مثل كوفي- يركزون أساسًا على التزام الآباء والأمهات تجاه أبنائهم، فلا بد عند الاستفادة من الكتب الغربية ملاحظة الفروق الجسيمة بين الأسرة عندهم والأسرة في عالمنا الإسلامي، ومنها أن الأب والأم عندنا مسئولان عن أبنائهما ولا يمكن أن يحبوهم حبًّا غير مشروط ولا غير مرتبط بسلوكهم، وإنما عليهم مسئولية تعديل هذا السلوك، وهما مسئولان عن تعديله أمام الله سبحانه وتعالى.

ولأن الأسرة في بلادنا ما زالت متماسكة نجد أحيانًا أن أجيالًا ثلاثة تتشارك معًا في الرعاية والتربية؛ فالأب والأم الذان يزواجن أولادهم ويسعدان بأحفادهم كثيرًا ما تجد الأم لا زالت أمهاتهم تعيش معهم، أي أن هناك ثلاثة أجيال في نفس البيت، وهم سعيدون بهم

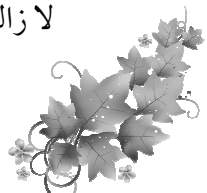

لأنهم بركة، ولا يخطر على بالهم أبدًا أن يلقوا بهم في دور المسنين كما يحدث في الغرب، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ إِلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ولَا تَنْهَرْهُمَا وقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: 23، 24]، فتأمل كيف قضى ربنا بعد عبادته وحده مباشرة بالإحسان للوالدين، وتأمل كلمة «عندك» أي أن الوالد أو الوالدة أو كليهما ما زالا عندك حتى بعد أن زوجت أبناءك، هذا هو إسلامنا ونحمد الله عليه، أما ميثاق الأسرة الذي أخرجته لنا الأمم المتحدة، فيرتكز على أن اليهود والنصارى لن يهدأ لهم بال حتى نتبع ملتهم، أي يصبح عندنا التفكك الأسري الذي صار عندهم؛ لأن الأسرة هي اللبنة الأساسية في بناء المجتمع، فلو تفككت لَتفكك المجتمع، ولكن لأن الله دائمًا يقيّض من علماء الأمة من يدافعون عن دينه فقد أصدر مجموعة من علماء المسلمين ميثاق الأسرة في الإسلام، والذي أنصح كل من يريد تجديد أسرته بقراءته مع زوجته وأولاده، حيث تحروا فيه الحق وحذروا من كل ما يخالف الإسلام والفطرة السليمة في ميثاق الأسرة الذي أصدرته الأمم المتحدة، ووضعوا الأمر في نصابه، ولذلك فعند قراءة أي كتاب عن الأسرة كتب في الغرب لا بد من إدراك الفارق الهائل بين الأسرة عندهم وعندنا، والحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

أتمنى لك ولزوجتك كل التوفيق، واعلم أن حب الأسرة حب فريد في نوعه، وعندما تكون العلاقات الأسرية طيبة تكون الحياة نفسها طيبة، وأنا آمل أن الحكمة الموجودة في هذا الكتاب ستساعدك وزوجتك في إيجاد ثقافة أسرية جميلة تكون الحياة بسببها جميلة بحق، ولكن لا بد أن تتحلى بالصبر الذي هو تطبيق عملي للإيمان.